الفصل الرابع والعشرون

غريزتا الحل والربط

إن الطفل لا يفهم ما يحيط به من الكائنات إلا بمعونة الآباء والمعلمين ، وهم فى الواقع لا يستطيعون سبر غور ميوله إلا بعد زمن طويل ، فوجب عليهم أن يفوضوا إليه استجلاء الحقائق واختبار الأمور بما ركز فى جبلته من غريزتى الحل والربط. يتناول الصورة مثلا فيرتاح إلى النظرة الأولى إليها لغرابتها ، ثم يصيرها الاستعمال مبتذلة لولا ما يدخله فيها من التغيير، ولا نعجب إذا رأيناه يعبث بها لعله يصل إلى تغيير مناسب يؤثر فيه التأثير الرائع. يأخذ اللعبة ولا يكاد يمضى اليوم حتى يكسرها . يمسك الساعة فتدهشه دقاتها ، ويحاول فتح غطائها ليقف على السر المكنون فى باطنها ، وإذا أعياه ذلك كسرها لا حبا فى الإتلاف كما وهم المخطئون ، بل طموحا إلى علم تجريبى يطفئ به أوار ظمئه.

ومما يدل على أن الطفل مولع بالتركيب أنه ينبرى لصنع طيارة مثلا إذا اجتمع عنده الخيزران والورق ، وينبرى لصنع الكيس إذا توافرت لديه القصاصات ، ويقيم البيت مما يقع فى يده من الأشياء . وقد تحرك هذا الميل فى صدرى وأنا صغير، وانتهزت فرصة فراغى وصنعت مما كنت أجمعه من المواد عجلة تدور بمحرك ، وكان شوقى إلى إتمامها وتنفيذ ما دار بخلدى من أمرها يحملانى على مقاساة التعب بدون شعور.

على الحل والربط عماد اللغات ، لاحتياجنا فى منشآتنا إلى مفردات صحيحة

فصيحة نستعيرها من أساليب البلغاء ، نحلها ثم نصوغها صوغا جديدا يعرب عما يدور بخلدنا من المعانى ، ونسدل عليه ثوب التأثير .

ويعول علماء الأعضاء على هاتين الغريزتين فيتنافسون فى تشريح الحيوان الحى وتجريده من أجزاء مخه ومراقبة حركاته لعلهم يدرسون علاقتها بالمدركات . وقد توسعوا فعرضوا على من سئم الحياة أموالا طائلة ليسمح لهم أن يجروا التجارب فى جسمه فى أثناء حياته ، فيعرفوا كيف تؤدى أعضاؤه الباطنية وظائفها.

وعلى الجملة لا يستطيع مبدع أن يجول على بصيرة فى ميادين الأعمال بدون أن يتخذ من هاتين الغريزتين رائدا له. ونحن إذا خفنا عبث الطفل بأثاث منازلنا ، وأغلقنا أمامه أبواب التجارب التى يستفيد منها العلم الصحيح بما يحيط به أمنا الخطر طبعا ، غير أنه ينمو فاتر القوى جامد الذهن ، ضعيف الإرادة.

ومن أجل ذلك فكر المربى «فرويل» فصنع لعبا تقبل الفك والربط ، يتناولها الطفل ويصوغ منها أوضاعا يبتدعها. ولبعضهم نماذج مصنوعة من الخشب وشى ظاهرها بصور رائعة يفكها الطفل ، ثم يهيم شوقا بإعادتها كما كانت ، ودليله على ذلك أن تبدو تلك الصور بشكلها الأصلى ، ويتولى بنفسه تركيبها ، ولاستحالة قيام بعض أجزائها مقام بعض لابد أن يصل إلى وضعها الذى كانت عليه طال به الزمن أو قصر ، وعجينة الصلصال الشائعة الآن فى المدارس أداة وضعت لهذه الغاية ، تسهل على الطفل محاكاة النماذج وتقويم اعوجاج مصنوعاته بنفسه.